سليمان عليه السلام

سليمان وبلقيس

اتجهت همةُ نبيّ الله سليمان إلى بناء بيت المقدس بالشام، تسهيلاً لأسباب العبادة، وقرباناً إلى الله؛ فنشِط حتى أقامه عالِيَ الأركان، شامخ البنيان، ولما تم له ذلك اطمأن قلبُه، وسكنت نفسه، ثم نزعت إلى أن يؤدّي فريضة الله، فلا بد له إذَنْ أن يتهيأ للحج في حشد عظيم.

يَمّم النبيُّ شطر الحرم، فوافاه، وأقام به ما شاء، حتى إذا وفَّى نذره شَدّ رَحله وفارقه، ثم جد به السير نحو أرض اليمن؛ فدخل أرض صنعاء[1]، وأخذ يتفقد الماء، ويتفقد منافذه، ويسبر أغواره، فأعياه البحث، واستعصى عليه المنال.

لذلك خفّ سليمان، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلَّهُ على الماء، فوجده من الغائبين؛ فأقسم لَيُعَذِّبنَّه أو ليذبحنَّه، إلا أن يأتي بحجة واضحة، يمهد به لعذْرِه، ويزيل ما يحالج النفس في أمره، ولكن الهدهد غاب غيبة قصيرة، وعاد يخفض رأسه وذنبه تواضعاً لِسَيِّدِه، وتقدم إليه ينزع من نفسه ما عسى أن يكون قد ألم بها من غضب عليه، أو كَيْدٍ إليه، تقدم الطائر فقال: لقد اطلعت على ما لم يمتد إليه علمك، ولم تصل إلى الإحاطة به أسبابُ قوتك وملكك، وكشفت سِرًّا ندّ عنك أمره[2]، واختفى خبره.

فخفّض هذا الحديث المشوق ما كان من حدة سليمان، وبعث إلى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال ذلك الحديث المستحسن الجذاب، فاستحثَّ الهُدْهُدَ أن يأتي بخبره، وأن يُدْلي بحجته وعُذْره.

فقال الهدهد: وجدت في أرضِ سبأ[3] امرأة تملكهم، وقد أوتيَتْ من كل شيء

---

(١) صنعاء: أحسن بلاد اليمن.

(٢) ند عنك أمره: بعد وغاب.

(٣) سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب.

ولها عرش عظيم، إلا أن الشيطان قد استبطنهم[١]، وخالط منهم اللحم والدم، والمسامعَ والأطراف، فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون؛ وجدتُهَا وقومها يسجدون للشمس من دُونِ الله، فهالني أمرها وروّعني شأنها، وما كان أجدرهم، وأولى بهم - وهم أولو القوة والمجد - أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تُكِنُّ الجوانح؛ لا إله إلا هو رب العرش العظيم!!

دُهِش سليمان لهذا الأمر العجيب، وقد رأى ألا يفجع الهدهد في خبره، وألا يردّ عليه قوله: بل قال له: سننظر في نَبَئِك، ونتحقق أمْرَ صدقك من كذبك، وإذا كان الأمر كما وصفتَ، والحق كما صورتَ، فهذا كتابي، اذْهَب به فألْقِه إليهم، ثم تنحَّ إلى مكان تنتظر رأيهم، وترتقب جوابهم.

حمل الهدهدُ الكتاب، ثم سار إلى بلقيس، فألفاها بقصرها في مَأرِبٍ[٢]، فطرح الكتاب أمامها، فتلَقَّفته وقرأته، فإذا فيه ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾[٣].

فجمعت الملكةُ وزراءها وأمراءها، وأكابرَ دولتها إلى مشورتها، لتطيِّب نفوسهم، لاعتدادها بهم ورُكُونها إليهم، ولكي تعتصم بحكمهم، وتستظهر برأيهم، فقالوا: نحن أبناء حَرْبٍ وَجِلاد، لا أهْلُ رأي وسداد، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك وشؤوننا لتفكيرك؛ فانظري ماذا تأمرين نكن طَوْعَ بنانك ورَهْن كلامك.

لمحت الملكةُ في كلام رجالها ميلاً إلى الحرب والمدافعة، فزيّفَتْ كلامَهم، وخطَّأت رأيهم، وأبانت لهم أن الصلح خير، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة أن يبدءوا بالتي هي خير لهم وأحسن، فقالت: إن الملوك إذا غلبوا قرية، ودخلوها عُنوة خَرَّبُوهَا: فأبادوا حضارتها، وجعلوا أعزتها أذلة، وتحكموا في الرِّقاب، واشتطوا في الاستبداد؛ ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام، وتوالت الأزمان؛ وإني مُرْسِلَةٌ إلى سليمانَ بهدية، فيها من كان غال وثمين، ونفيس وكريم، أصَانِعُه بها على مَلكي، وأتبين بها سبيله، وأتعرف منها نهجَه.

---

(١) استبطنهم: صار في بواطنهم وهو لهم كبطانة الثوب.

(٢) مأرب: بلاد الأزر باليمن وهي بين صنعاء وحضرموت (معجم البلدان: ٥/ ٣٤).

(٣) سورة: النمل، الآيتان: ٣٠ و٣١.

obeikandi.com

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم. فانتقل الرسل بالهدايا، وأقبل الهدهد إلى سليمان يبُثه الخبر؛ فاتخذ سليمان للأمر عُدَّتَه، وقدم لما بعده أُهْبَتَه، لذلك أمر الجن فزينوا له بناءً عجيباً، وصرحاً مشيداً، يهزُّ الأفئدة، ويبهر الأعين، ويدهش القلوب.

فلما دنا القوم نظروا فَبُهتوا، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلْق، يرحب بقدومهم ويتهلل للقائهم، ثم بدأ يستشف غَرَضهم، ويتعرف رأيهم، فقال: ما رواءكم؟ فتقَدَّموا بما حملوا من هدايا ونفائس، يبتغون بها رضاً وقبولاً من النبيّ الكريم.

فَعَفَّ سليمان وَتَلطَّف، وقال للرسول: ارجع إليهم بهديتهم؛ فإنَّ الله أعطاني الرزقَ السخيّ، وَالعَيْشَ الرضيّ، وَمَدَّ لي أسباب النبوَّة وَالمُلك وآتاني ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، وكيف يرضى مثلي أن يُمَدَّ بمال يُصَانَع به، أو كيف يلهيه عن نشر دعوته ملءُ الأرض ذهباً!؟ إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فأنتم بهديتكم تفرحون؛ ارجع أيها الرسول إليهم، فلنأتينّهم بجنود لا قِبَل لهم بها، ولا قدرة على احتمالها، ولنخرجنهم من سبإٍ أذِلَّة، ذَاهِباً عنهم العزّ والمُلك والسلطان.

ذهب الرسلُ فأخبروا بلقيس بما رأوا وما سمعوا؛ فقالت: ليس لنا بُدّ من السمع والطاعة، ولنبادر إلى إجابته، ونسارع لقبول دعوته.

فلما سمع سليمانُ بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخّر له من الجان: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مُسْلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن ينقضيَ مجلسُ حكمك، فتقوم من مقامك، وإني لذو قوة على إحضاره، وأمينٌ على ما فيه. قال الذي أوتي العلم والحكمة: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طَرْفُكَ.

أراد سليمان عرش بلقيس أن يكون عنده فكان، فقال: هذا من فضل ربي عليّ، وتلك نعمةٌ منْ نِعَمِهِ إليّ، ليبلوَني[1] أأشكر أم أكفر؟ وَمَنْ حسنت النعمة لديه، وصادفت من قلبه مكاناً طَهُرَتْ حواشيه، وسكنت نوازيه، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه، لأن مرجع الشكر إليه. وأما مَنْ كفر بنعمة ربه، وَخَبُثت سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا

(١) بلاه: اختبره.

والآخرة، والله غني عن العالمين. ثم قال سليمان لجنوده: نَكِّرُوا[١] لها عرشها، وَغَيِّرُوا رُوَاءَه لننظر: أتهتدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون؟

فلما جاءت قيل: أهكذا عَرْشُك؟ فاستبعدت أن يكون ذلك عَرْشَها، وقد خلَّفَتهُ بأرض سبأ، ولكنها رأت معالمه، وتبينت آياته ومحاسنه، فَدُهِشَتْ لذلك الأمر الغريب، وقالت: كأنّه هو، ووقفت مشتَّه الفِكْر، حائرة القلب، والهة الفؤاد.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض، ثم دعا ملكة سبأ إليه، فلما رأته حَسِبَتْهُ لَجَّة[٢]، فكشفت عن ساقيها؛ قال: إنه صرح ممرَّد[٣]من قوارير. فانكشف حجابُ الغفلة عنها، وقالت: ربِّ إني ظلمت حيناً عن عبادتك، وضللت بعض الزمن عن رحمتك، فظلمت نفسي، وحبستها عن نورك، والآن قد أسلمت مع سليمان، خالصةً لك، متوجهة إلى طاعتك، وأنت أرحم الراحمين.

حكمة سليمان

هذا داود عليه السلام قد استوى مَلِكاً على عرش بني إسرائيل يحكم فيما شَجَر بينهم، ويصَرِّف أمورهم، ويرعى وَحدتهم ومعاشهم، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم، ويبسطون خصومتهم، ويُدلُون بحججهم، وهو يفصلُ في كل ذلك بالعدل والقِسطاس.

وهذا ابنه سليمان لَمَّا يَكْتَمل، فهو في الحادية عشرة من عمره، ولكن أباه قد أصبح شيخاً هِمَّا[٤]، أوشكت شَعُوب أن تخترم أجله، فهو دَائبُ التفكير في أمر قومه مهتم بمن تكون له الولاية من بعده، يرى أبناءه من حوله، وسليمان ـ وإن كان صبياً ـ إلا أنه يفضلهم علماً وحكمة، قد نضجت شمائله، واكتملت بوادِره، يصرِّفُ الأمور تصريف الناقد الحازم، البصير النظّار[٥].

---

(١) نكِّروا: أي غيروا إلى حال تنكره إذا رأته.
(٢) لجة: من الماء.
(٣) ممرد: ممَلَّس.
(٤) الهمُّ: الشيخ الكبير الفاني.
(٥) النظار: الشديد النظر.

جرت سنَّةُ داود على أن يُحْضِرَ خصومته ابنُه سليمان، حتى تزداد قوته، ويَسْتَحصِف رأيه، فكان سليمان ملازماً لأبيه في مجلسه، حتى يكون له من آرائه فيما بعد نور يمشي به، ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير.

وفي مجلس من مجالس القضاء جلس النبيُّ الملك داود، وجلس بجانبه ابنه سليمان، فأتى خصمان، قال أحدهما: إن زرعاً له قد آتى ثمره؛ ودلت قطوفُه، وصار بهجة الناظر، وعتاد الزارع، انتشرت فيه غنم خصمه، ولم يردّها رادّ، يُحكم وثاقها راعٍ؛ بل سَامَتْ، وانسابت في الزرع ليلاً، فأهلكتهُ وأبادتُه حتى صار أثراً بعد عين.

قال صاحب الزرع ما قال، ولم يدفعهُ صاحبُ الغنم بحجة ولا دليل، فلزمتهُ الخصومةُ، وَحَقّتْ عليه كلمة القضاء.

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصة له كِفَاء زرعِه، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركُوها فَنَفَشَت[1] في الزرع بالليل، ولكَن الصبي سليمان ـ وقد آتاهُ الله علماً وحكمة، وأوقفُه على دقيقات هذه الخصومة، وَجَمَّله بالرأي فيها تهيئةً منه ليتولى ذلك الملك العريض ـ انبرى في مجلسهِ، وفك عقال صمتِه، وانفلتت إلى القوم حجته، فقال: غيرُ هذا أرْفق، ودون هذا أوفق.

فدهش القوم لجراءة الغلام، وانتظروا صامتينَ ما وَراءه، فقال: تُدْفَعُ الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وَأشْعَارها، وتسلَّم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومُون على زراعتها، حتى تعودَ كما كانت، ثم يترادَّان، فيأخذ كلٌّ ما كان تحت يمينِه، وبذلك لا يكون هناك غُنْمٌ وَلا غُرْم، فهذا أقربُ إلى العدل وَأصحُّ في الحكم، وَأوْلى في القضاء.

كان هذا مبدأ لظهور أمر النبي سليمان، الذي كان خير خلفٍ لأبيه.

* * *

سليمان على عرش أبيه

داود يهيىء ابنه سليمان ليكُون خليفةً من بعده مع ما هو عليه من حداثة السنِّ

(١) نفشت الماشية في الزرع: انتشرت فيه ورعته ليلاً.

وَغَضَاضة الإهَاب[١]، ولعله قد أخذ بأبهة العَرش وازدهى بعزته، فخالط قلبه الفخر، وامتدَّ أمله إلى التعلق بغرض من أغراض الحياة، وذلك ـ وإن يكن غَرْزِيًّا في بني الناس ـ إلا أنه كثير على مَنْ مُنح هبة النبوَّة، واصطفاهُ الله لهداية العالمين. وهٰذا ابنٌ آخر لداود: هُو أبشالون قوي عتيد، قد استوى ساقه، وَعَرَكَ تجارب الدهر، وَعرف دخائل الأمور، ومع ذلك فهو مَقْصِي عن المُلْكِ، مُبْعَد عن الخلافة والسلطان.

وذلك تدبير لا يُرْضي أبشالوم، ولا يطمئن إليه، فهو لذلك سيشقُّ عصا الطاعة خارجاً عن أبيه وَأخيه، وَسَيكافحُ ويناضل في سبيل هذا الملك، مهما يكلفه ذلك من عزيز.

استمرَّ أبشالوم رَدَحاً[٢] من الزمن يتقرب إلى قومه بني إسرائيل، وَيغمرهم بعطفه، وَيَقضي بينهم، ويصلح أمورهم ويجمع شملهم حَوله، انتظاراً لأمر يدبره وعمل يبيِّته، حتى لقد غالى في أمره، فكان يقفُ بباب أبيه الملك يصدّ عنه كل صاحِب حاجة ليقضيها له بنفسه، ليكُون له على كل إسرائيل مِنَّة ويد، ليعرفهم أنه صاحِب حَوْل وطَوَل، حتى يكونوا إليه نازعين، ولرأيه خاضعين.

بعد أن أعدّ أبشالوم عُدته، ودَبَّر مكيدتهُ، واطمأن إلى أنه قد استرَقَّ قلوب بني إسرائيـل، واستولى على زمامهم ـ بعد ذلك استأذن أباه داود في أن يخرج إلى «جدون» ليُوفي بنذرٍ هُناك؛ ثم أرسل جواسيسه في أسباط بني إسرائيل قائلاً: إذا سمعتم بُوقاً ينذر بجمعكم فانفروا إليَّ وأعلنوا المُلْكَ لي فذلك خير لكم، وَأَوْفىٰ لحقوقكم، وأمكَن لسلطانكم.

ثار الشعب واشتدت الفتنة، وتزايد الصّخَب، وهَبَّت على أورشليم[٣] ريح هَوْجاء توشكُ أن تأتي على الأخضر واليابس.

علم داود بالخبر، فكان شديداً عليه، إلا أنه ربط جأشه، وملك نفسهُ، ثم قال لمن حوله: هيا بنا نهرب، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم، ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن، وصعد داود إلى جبل الزيتون باكياً حافياً، هو والذين معه.

---

(١) الإهاب: الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل دبغه وهنا بمعنى الجلد.
(٢) ردحاً: مدة طويلة.
(٣) أورشليم: هو اسم بيت المقدس بالعبرانية.

وكان نَـفَرٌ قد شمتوا بداود، فتألبوا عليه يسبُّونه، ويُـؤْلِمُونهُ بقوارس الكلم، فهمَّ بهم خلصاؤه إلا أنه منعهم في ألم وحسرة قائلاً: إذا كان ابني يطلبني فما أحرى غيره بذلك!

ثم تقدّم داود إلى الله في ضراعه وذلة: أن ينجيه مما حاق به، وأن يكشف عنه البلاء المحيط.

دخل أبشالوم بعد مخرج أبيه إلى أورشليم وامتلك نواصي الأمور. ثم أرسل داود قواده، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة، وأن يحقنوا دم ابنه أبشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل، إلا أن القدر قد دبّر غير ما اشتهى الوالد الرحيم، فقد دخل القواد إلى أبشالوم ولم يروا إلا قتلتَه، فكنت الفتنة، واستراح الناسُ. ورجع المُلْك إلى داود ومن بعد لابنه سليمان.

قرّ سليمان في ملكه، ووَهَبه ربه ملكاً عريضاً. وجَاهاً وسيعاً، وسخر له الريح تَجري بأمره، وتسير بمشيئته ورأيه، وعلّمه منطق الطير فكان يتفاهم بأصواتها، وينتفع بمواهبها، ويطمئن إلى أخبارها.

وأسال الله له عيناً مُصْطهرة، تقذف النحاس من باطن الأرض، فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير، ومِن الجن مَن يعملُ له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجفانٍ كالجوابي[١] وقدور راسِياتٍ.

* * *

وَرِثَ سليمانُ داود في نبوّته وملكه؛ وآتاه الله مُلكـاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلّمه منطق الطير، وسخر له الشياطين، وأطلق بأمره الريح، فكان يعرف تخاطُبَ الطير بلغاتها، ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

ولقد ركب نبيُّ الله الملكَ يوماً في حَشْدٍ، عظيم من الإنس والجن والطير، وحتى نزل أرض عسقلان[٢] فأتى على وادي النمل، فبَصُرت به ـ على بُعدٍ ـ نملةٌ من النِّمال،

(١) الجوب: الدلو الضخم.

(٢) عسقلان: مدينة على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين.

فارتاعت لذلك الحشد، وخافت على قومها أن تدوسهم جنودُ سليمان فتحطمَهم، فأهابت بهم: أن ادخلوا مساكِنكُم حتى لا تَذْهبوا ضَحِيةَ سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

سمع سليمان قولها، وعرف مرادها في ندائها، فتبسم ضاحكاً لقولها، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب، وأعجاباً بما تجلّى في قول النملة من شعور وإدراك، لأنها أيقنتْ أنه نبي، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون.

طلب نبيُّ الله من ربه أن يقيّضَه لشكره على ما أنعم عليه من عطية، وما خصه به من مزية، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات، فيهيء له من أمره رَشَدَا، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين.

obeikandl.com

قضاء الله في بني إسرائيل

اسْتَشْرى الفساد في بني إسرائيل، وتهافتُوا في حَمأةِ الضلال، وفشا بينهم العِصيان، واضطرب حبل الأمان، ولم تعد للرحمة مكان في نفوسهم، ولا لهيبة الأنبياء نصيبٌ من قلوبهم، أما أحبارُهم وقُرّاؤهم فقد أنكروا حَق الله، وأما ولاتُهم فقد كذبوا الرسل، ونَبَذُوا وراء ظُهورهم الكتاب، كتاب الله! فاستحقوا من الله أن يُذيقَهم العذاب، وأن يوقعَ عليهم شديد العقاب، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعْدَلُ من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يُرسل إليهم النذير، أو يعاقبَ طغاةً ظالمين قبل أن يبيِّن لهم وجه الطريق.

وكان «أرمياء» نبيًّا من أنبيائهم، ورجلاً من صميم بيوتهم، فوقف بينهم يصيح بكلمة الحق، ويَصدع[1] بأمر الله: أي قومي وأبناء عشيرتي، لقد طال فسادكم وعمّ داؤكم، وسخِط عليكم ربكم. هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه، وذلك حقُّه فيكم قد جَحَدتموه، وقد علمتم نِعَمَه عليكم سابغة، وأبرَاد خَيرِه فوقكم ضافية، وآلاءَه عليكم ظاهرة وباطنة، قد مكن لكم في أرضه، وأنزلكم إلى حِمَى بيته. وفضَّلكم على العالمين.

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة ـ وفي رحمته بكم عبرة، هذا سنحاريب نزح إليكم من بابل[2] في عَسفه وبطشه، وفي جندِه وحزبه، وفي قوته وصبره، حاول أن يغزوكم في عُقر دارِكم، وأن يتغلغل في صميم بلادكم، ولو خُلّي بينه وبين ما يريد لأفْنى عددكم، وأذهب جَمْعكم، لكن الله رحمكم بنبيكم شعياً، فوقف إلى الله داعياً مُتَحَنّنا، وإليه راغباً مُتَطلِّباً: أن يصرَف عنكم السوء، ويدفَع الأذى، ويَرُدَّ ما يراد بكم من كيد، فاستجاب الله دعوته، وتقبّل كلمته، ورجع عدوكم مذموماً مدحُوراً، يتعثر في ثوب الخِزْي، ويتسربلُ سرْبال الهوان، بعد أن هلك جندُه، ودبّت إليهم الأمراض وتخونّتهم[3] الأسقام.

---

(١) صدع الأمرَ: بيَّنه وجهر به.

(٢) بابل: اسم ناحية منها الكوفة والحِلة.

(٣) تخونتهم: أضعفتهم وأنهكتهم.

وماذا كان جزاءُ شَعيا فيكم، وماذا كان مقامه في نفوسكم؟ لو كان في قوم غيركم يَرْعوْن الجميل، ويحفظون يد الكريم ـ لظل دهرَه بينهم مرعي الجانب، مسموع الكلام، ولكن يا حسرةً عليكم، ويابؤساً لصنيعكم! لقد أهنتُموه وخذلتموه، ثم قتلتموه وذبحتموه، فأرَقْتُمْ منه دماً زَكيًّا، وأهنتم كريماً أبيًّا!! وصعدت روحُه إلى الله طاهرةً مقدّسة، مبرورة مكرمة، تشكو إلى الله الجوْر والطغيان، وتبرأ إليه من العقوق والكفران.

ثم ما زلتم أنتم هؤلاء: تظاهرون بالإثم، وتواصوْن بالعدوان، ولا تتناهون عن منكر تفعلون، كأن التوراة لم تهَذِّب من نفوسكم، وكأن الرسل تنادي في غير دياركم!!

اسمعوها كلمةً صادقة وتلقوه إنذاراً حاسماً: لقد أوحى الله إليّ أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم العذاب والعقاب: لئن لم تُفيقوا من سَكْرَتِكم وتزجُرُوا غراب جهلكم، وترجعوا إلى كتابكم تَستمْسِكون بعُروَته، وتحتكمون إلى آياته، وتعودوا قوماً صالحين، ليبعثن عليكم عبيداً أشدّاء وجنوداً أقوياء، بأسهم. شديد، وعزمهم حديد: لا تسكن الرحمةُ نفوسَهم، ولا تعرف الرأفة سبيلَها إلى قلوبهم، يأخذون بناصيتكم، ويُرغِمون أنوفكم، ثم يجوسُون هذه الديار؛ فإذا تلك القصور التي تنعَمون في ظلالها قد استحالت خراباً يَباباً[١]، وإذا تلك الآطامُ[٢] المتراصة أصبحت شِعاباً، وحدائقكم التي ترونها ذات بَهجة تُضحي عرِّيسات[٣] أُسُود، وحقولُكُم تلك التي تجنون ثمارها تمسي مرابض نمورٍ وفهود، والمعابد التي خَلقَها الله رَوْحاً لقلوبكم، ومثابة لنفوسكم، ليَنْتهِكنَّ حرماتها وليستبيحنَّ عَرَصاتِها[٤].. وهكذا تُصبحون حرماً مستباحاً، وكلاً مباحاً، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل.

وقد نصحتُ لكم ما وسعني النصح. وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح، وأنتم بعد ذلك مُفوَّضون في الطريق التي تسلكون، وفي النهج الذي تنتهجون.

قال كبيرهم: أهذا الذي جَمَعْتَ إليه حشدنا، ودعوت إليه لفيفنا؟ لقد كذبتَ على

---

(١) اليباب: الخالي لا شيء فيه.
(٢) آطام جمع أطم: وهو الحصن.
(٣) عِرِّيسات جمع عِرِّيس: وهو الشجر الملتف يكون مأوى للأسد.
(٤) عرصات جمع عَرصة: وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

الله وأعظمت الفرْية عليه! أكان لله الذي اختارنا من بين خَلْقِه، واصطفانا لتلقي كتابه ـ أن يُذهب مُلْكَنا على يد كفار لا يعبدون إلا النار، ولا تعنوا جباههم إلا للأوثان! إنَّما ترجمُ بالغيب، وتتظنَّى بالمنكر، وتضرب في أوديَة الوهم والضلال.

قال أرميا: يا هؤلاء؛ إنما يُرسلهم الله عليكم معذبين، ويرميكم بهم معاقبين؛ كما يرسل الطاعون الجارف، أو السيل العارم، وما الفرق بين أن تصيبكم دويْهيَةٌ تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملك كافر يُذلُّ ناصيتكم، ويمزق أوصالكم؛ وشهد الله أني نصحتكم وما غَشَشْتُكم، فانظروا لأنفسكم، وتخيَّروا لأبدانكم. قالوا: جادَلْتَنَا فأكثرتَ الجدال، وكأنك رأيت رُقعة الحلم وسيعة فأغريت بالكلام، وطائر الصدْر ساكناً فبلغت في الملام، وما نرى لك إلا أن تغَلّ يداك وتُصَفَّدَ رجلاك، وتُرْمَى في سجن عميق، أو تنفى إلى مكان سحيق. وطلع الصباح وإذا بأرميا مُلْقى في سجنه، مُصَّفَّداً مغلولاً!

وتلفّتوا إلى الشرق يوماً، فإذا بالغبار يَعلو حتى يبلغ عنان[١] السماء وينعقد حتى يحجب الضياء، ويتكاثف حتى يملأُ الأرض حُلوكةً وظلاماً؛ ثم ينقشع هذا الغبار، ويتضح عن أشْوس[٢] مقدام، يقود جيشاً كقطِيع الغمام، ما فيهم إلا حَمْس[٣] جميع الفؤاد.

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابل، يريد بهم الشرَّ، ويقصِدُ لهم الهلاك، وهو نِقْمةُ الله أرسلها، وغضْبَتُه رَمى بها، فمن الذي يستطيع صده؟ ومن الذي يقدر أن يقف جيشه؟ وتساءلوا: أهذا الذي خوَّفنا به أرميا؟ إن كان هو فقد حَلَّت الداهية ووقعت الكارثة.

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتمُّوا حَدْسهم، ويعرفوا ما وراء زَعمِهم؛ بل انقضَّ على المدينة وحشاً كاسراً، ومخرّباً هدّاماً، جريئاً مقْداماً؛ لم يصادف منزلاً إلا قوّضه، ولا صَرْحاً إلا هدمه، ولا طريقاً إلا أخفى رُسومَه، ولا قصراً إلا محا أعلامه.

وبيت المقدس انتهك حُرُماتِه، وأسقط شُرُفاتِه، وعطل العبادة في جنباته، أما القوم

---

(١) العَنَان: ما يبدو لك من السماء إذا نظرت إليها.

(٢) الأشوس: الجريء الشجاع.

(٣) الحماس: الشدة والشجاعة.

فقد حاطهُم قتلاً وذبحاً، وأسراً وسبياً، ثم فرَّقهم في الأرض بَدَدا، وترك ديارهم خراباً يباباً.

كأن لم يكن بين الحَجُون[١] إلى الصفا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر

ومرت أعوام، وتصرمت أجيال، واشتعبت بختنصر شَعُوب، وقُطِعت أسبابه من الحياة، وتولى عرش بابل ملك خافِضُ الجناح، سهلُ المقَادة، لدْن[٢] العُود، ورأى القومَ من بني إسرائيل يرْسفون في أصفاد الذل، ويَغدون ويروحون تحت نِيرِ الهوان، فسأل: ما خطبهم؟ وما أسباب هوانهم؟ قالوا: إنهم أسلاف يعقوب، وأحفاد داود، وكانوا يُقيمون في الشام وبلادهم مَشفُوهة[٣] الموارد، عَذْبه المناهل، وإن أباك قد أذل أبيَّهم، وأرغم حَميَّهم، وفرّقهم في البلاد طرائق، وشرَّدهم في الآفاق حزائق[٤]، وضرب عليهم ما تراه من ذلٍ وهوان.

فوجدت هذه الكلمات منه قلباً رحيماً، وصادفت عنده طبعاً كريماً، فنادى فيهم: أن أجْمعُوا شملَكم، ولموا شتاتَكم، وضموا نَشْركم[٥]، وثوبوا إلى بلادكم، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع، ونسج متلاحم.

ورجعوا إلى بلادهم، وردّ الله الكَرَةَ عليهم، وأمدّهم بالأموال والبنين، وأخْصب لهم الزرع، ونما الضرع، واطردت لهم أسباب السعادة والوئام.

وكان من حقهم أن يعتَبروا بما كان، وأن يقابلوا النعمة بالشكران، ولكن أنى للنفوس التي طُبعت على الشر أن تستروح الخير، وتميل إلى الصلاح؟ وأنى لسلائل القوم الذين تمالئوا على يوسف، وآذوا موسى من بَعده، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان، أو تنسى العدوان؛ فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم إلى الشر، وأخذوا يحطِبون في حبال الظلم والبغي، حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيى نبيين رحيمين، ورسولين كريمين، سفكوا

(١) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها.
(٢) لدن: لين.
(٣) شُفِه الشيء: كثر طالبوه فهو شَفوه.
(٤) الحزقة: الجماعة من كل شيء.
(٥) النَّشر: القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس.

دمهما، كأنّ بنفوسهم عطشاً إلى الدماء، وكأن وَتْراً[١] بينهم وبين الأنبياء، وعادوا إلى الشر والعدوان، وعاد الله بهم إلى المكر والانتقام؛ وسلط عليهم جُودَرْز كما سلط على منْ قبلهم بختنصّر؛ وأعاد الكَرَة عليهم من ذَهاب ملكهم، وتخريب معابدهم، وهكذا مُزقوا كلّ ممزق، وتفرّقوا تحت كل كوكب، وضرب الله عليهم أبَد الدهر ﴿ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾[٢].

(١) وَتَـر فلاناً وَتْراً: قتل حميمه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦١.